

سيمياءية العنوان في رواية "عائلة من فخار" لـ "محمد مفلح"

Semantic of the title in the novel "aela men fakhakhar" by
"Mohamed Maflah"

أ. كوثر تامن*

تاريخ الاستلام: 2019-02-15 تاريخ القبول: 2019-04-23

الملخص: يهدف هذا البحث إلى استجلاء العنوان في رواية (عائلة من فخار) للروائي الجزائري (محمد مفلح)، وفقا لآليات المنهج السيميائي التأويلي ومعالجة النص السردى كونه خطابا لا مجرد نص متقاطع مع نصوص سردية أخرى مشابهة أو معاكسة له، فبنية العنوان .الذي يعد علامة سيميائية لغوية ودلالية تمتد في النص وترتد إليه، أو تتضاعف مع تنوع موضوعاته بين المسارات التي رسمها الروائي لشخوص عمله الإبداعي، لا تقود القارئ إلى النص فقط بل تجعله مشتتا بين عوالم الواقع المعيش الذي يرسمه خيال المبدع، فيضع بين يديه جزءاً من الحياة الاجتماعية للمجتمع الجزائري، يطغى فيها طرح المشكلات على إيجاد الحل المناسب لها.

الكلمات المفتاحية: عنوان؛ مسار؛ امتداد؛ ارتداد.

Abstract: This research aims at clarifying the title in the novel "aela men fakhakhar" by the Algerian novelist Mohamed Maflah, according to the mechanisms of the semantic method of

* جامعة قسنطينة منتوري 1، الجزائر،

البريد الإلكتروني: tamenkaoutar1981@gmail.com

interpretation, and treating the narrative text as a speech rather than a text intersecting with other similar or opposite narrative texts. The linguistic and semantic semantics of the text and its repetition, or multiplying with the diversity of its themes between the paths drawn by the novelist to the characters of his creative work, which do not lead the reader to the text but make him dispersed in the real life, and put in his hands part of the social life of Algerian society, Dominated the problems but do To find the right solution for them.

Keywords: title; semantic; Algerian society; novel.

المقدمة: الرواية جنس أدبي ذو بنية معقدة، وأكثر ما يكون ذلك التعقيد في الرواية الحداثيّة التي باتت تستوعب مختلف الأجناس الأدبيّة الأخرى، وهذا ينطبق على الرواية العربيّة التي برزت بعد هزيمة حزيران انطلاقا من موقف الرّفص والاحتجاج على الأوضاع السّائدة، وقد ترتب عنه تمرد جلي على أساليب التّعبير المألوفة ونزوح نحو تجاوز قواعدها واستبدالها بأخرى، كونها رواية تؤسس لحضورها عن طريق استحداث تقنيات جديدة، تعكس رؤية جديدة للأشياء والعالم والأمر ذاته بالنسبة للرواية الجزائريّة، فبالرغم من هيوليّة ملمحها، إلا أنّها تعد مسارا تواصليا للكتابة العربيّة بشكل عام، وهذا للظروف المماثلة التي تحيط بها سواء اختلفت الأقطار أم المجتمعات، وبالتالي فراهن الرواية يعكس الصّورة التي هي عليها، ويعكس منشأها الذي نشأت فيه. وتجربة (محمد مفلح) الروائيّة، من حيث هي تجربة حداثيّة تستمد مقوماتها من الواقع الحي الجزائري من ماضيه إلى حاضره، وتمثيل الحياة الإنسانيّة الجزائريّة في حدود إبراز الوعي الدّاتي وعلاقته بالوعي الجماعي من خلال المعيش الماضي والحاضر، والتّطلع نحو مستقبل حلمي أفضل، بالتركيز على ملامح الواقع والتّاريخ والحضارة التي أنشأها مجتمع مكافح ضد معالم الانكسار المفروض من الزمان والكشف عن الهويّة الشّخصيّة والجماعيّة للإنسان من خلال وجوده الدّاتي مع الآخرين وبهم.

ونحن نلج أحد نصوص الروائي (محمد مفلح) الموسوم بـ: (عائلة من فخار . مسار المتقاعد صاحب الخيزرانة .)، من مفتاح العتبة النصية لنسبر أغواره، أين يجمع فيه الروائي جزءاً من الأصالة وكثيراً من المعاصرة للأسرة الجزائرية التي تحاول التكيف مع واقعها المعاصر وصراعها مع الماضي، ما بين الأصول الموروثة والحاضر الذي يفرض تقاليده مع جيل الاستقلال؛ أنها المرحلة الانتقالية في حياة الجزائري الذي يحاول بناء ذاته من تراكم المخلفات الاستعمارية والعقلية السائدة في تلك الفترة، ومن مرحلة الاستقلال التي تمثل نقلة نوعية للفكر والوجود الجزائري، الذي يستدعي مناقرة سيميائية تأويلية، نجيب من خلالها عن تساؤلات جوهرية هي: كيف يربط (محمد مفلح) موضوع نصه بالواقع المعيش؟ وكيف يكون عنوان الرواية علامة تثبت ماهية النص وتدلل عليه؟ وكيف يمارس العنوان سلطته كعتبة تصنع وجود النص المادي والمعنوي؟.

تعريف العنوان: يشكل العنوان بالنسبة للعمل الأدبي نصاً موازياً، خاصة بعد ظهور المناهج النقدية النصانية التي اعتبرت النصوص مادة لغوية تحتاج إلى كثير من التحليل: (ولا يمكن مقارنة العنوان مقارنة علمية موضوعية إلا بتمثل المقاربة السيميوطيقية التي تتعامل مع العناوين، على أساس أنها علامات وإشارات ورموز وأيقونات واستعارات .ومن ثم، فلا بد من دراسة هذه العناوين تحليلاً وتأويلاً من خلال ثلاثة مستويات منهجية سيميوطيقية، ويمكن حصرها في: البنية، والدلالة، والوظيفة)¹ (حمداوي، 2015)، والعنوان يمثل المفتاح: (الذي يجس به السيميائي عالم النص على المستويين: الدلالي والرمزي، فهو مفتاح إجرائي به تفتح مغالق النص سيميائياً)² (دفة، 2000)، ويعد النص الصغير والمدخل الأول لعالم النص يشكل علامة لها قيمتها اللغوية والدلالية، ويمثل ذلك التمايز بين النصوص، إنه بمثابة الهوية للنص المنتج، والعنوان كعلامة، يشكل وعياً في النص كظاهرة عينية بارزة يعبر عن معنى كامن في مركزها، فد: (عن

طريق العنوان تتجلى جوانب أساسية أو مجموعة من الدلالات المركزية للنص الأدبي³ (فضل، 1992)، وله إسهامه في إبراز النص كعمل أدبي له وجود في العالم ويعطيه صفته التي تميزه وتغايره عن موجودات أخرى.

وأهمية العنوان تتعدى إلى مجموعة الاهتمامات التي أولى بها الباحثون هذه العلامة، في علاقته بالنص وبمتملقيه، وبها تتحدد قيمته كخطاب موجه إلى القارئ فهو: (إن صحت المشابهة بمثابة الرأس للجسد، والأساس الذي تبنى عليه)⁴ (مفتاح، 2006)، لما له من أهمية طبوغرافية أولا ودلالية ثانيا، فإن دراسته كعلامة في رواية (عائلة من فخار) للروائي الجزائري (محمد مفلح)، توضح قيمة العنوان كظاهرة، وديناميكية ووعي مساعد في إنتاج الخطاب الأدبي، والوعي به: وإذا أخذنا العنوان الذي يعلق على أغلفة الدواوين الشعرية أو فوق النصوص، فليس تموقعه زائدا ومجانيا، بل يؤدي دورا في التذليل، ويسهم في فهم الدلالة. ومن ثم فالعنوان هو المفتاح الإجمالي الذي يمدنا بمجموعة من المعاني التي تساعدنا على فك رموز النص، وتسهيل مأمورية الدخول في أغواره، واستكشاف تشعباته الوعرة)⁵ (حمداوي، 2015)، فإلى أي مدى يشكل العنوان ثقافة للوعي، ومركزية في رواية (عائلة من فخار)؟.

يشكل العنوان تسمية النص، حيث: (بالاسم يحقق ما ليس له اسم هوية وتعريفا، وتحديدا، وتوصيفا وطبيعة)⁶ (سلفرمان، 2002)، ويعد تعريفا وتمييزا من حيث كونه: (علامة للنص، أي سمة له وأمانة عليه ودليلا إليه، وهذا يعني أن إنجاز النص لأنطولوجيته واختلافه، لا تتحقق إلا بالعلونة من حيث هي عملية إنتاج لـ "اسم نص")⁷ (حسين، 2007)، فيهب النص مشروعية وجوده في العالم عن طريق إنتاجه للمجال الدلالي الذي يتسع من خلال النص فيكون في متنه دلالات موازية أو معاكسة أو مناقضة، أو متداخلة مع دلالة العنوان، ومن هنا تبدأ علاقة الامتداد التي تربط النص بالعنوان.

امتداد ارتداد العنوان في النص: إن النص في هذه العلاقة يمتد ويتولد من العنوان، الذي يكون عبارة عن تكثيف للدلالات التي تتفكك في النص بذلك: (يشكل الموضوع أو المحور العام الذي تكون كل أفكار المقال مسندات إليه، يكون هو الكل وتكون هي جزئياته)⁸ (كوهين، 2000)، فالعنوان في علاقته الامتدادية بالنص (يقي الخطاب من الاندثار والتشتت والتلاشي)⁹ (حسين، 2007)، ويكون جامعا لدلالات النص وأفكاره التي يحتويها، ويحافظ النص على كيانه، ويشكل وعيا بوحدة النص .

صفة الامتداد نحو الدأخل تجعل العنوان واضح المعالم والأهداف، واضح الدلالة وسهل الفهم، ويحقق ثقافة الوعي بدأخل النص وينشئ نوعا من التواصل والتفاعل بينهما فيجب: (ألا ننظر إلى "عنوان" مقطوع خطابي ما على أنه يساوي "موضوع" ذلك المقطع، بل هو تعبير ممكن واحد عن ذلك الموضوع)¹⁰ (براون ويول، 1997)، ومن هنا تكون قراءة امتداد العنوان في النص بحثا عن خلفيات وانتشار موضوع النص من بدايته حتى نهايته.

أما العلاقة المعاكسة التي تربط العنوان بالنص فهي العلاقة الارتدادية، أي ارتداد النص في العنوان، وهذه العلاقة تنشأ حين يكون العنوان آخر مرحلة في إنتاج النص، فهو يوضع في معظم الأحيان في اللحظات الأخيرة، أو بعد الانتهاء، وهنا يكتسب علاقته الارتدادية مع النص، فيتعرض هذا الأخير إلى نوع من الضغط لتلك الطاقات الدلالية المنتشرة فيه، والبنى التركيبية والمعاني المختلفة لتتركز كلها في بنية ضيقة ومختصرة هي العنوان، الذي يصبح عندها عبارة عن (نص مختصر للنص يتعامل مع نص مفصل (...))، أي يتأخر عن النص بنائيا وزمانيا¹¹ (حسين، 2007)، فمن خلال علاقتي أو صفتي الامتداد / الارتداد يتشكل الرابطة البنائي بين العنوان والنص، فالعلاقة الجدلية بينهما تسهم في ملاحقته كتركيب له أهميته الواضحة في عملية إنتاج النص الأدبي، ودراسته

باعتباره علامة تؤدي هذا الغرض، عن طريق الإمساك بأشكال الحضور المختلفة للعنوان الرئيس للعمل الأدبي: اللفظية والدلالية، وكيفية انتشاره في متن الرواية وامتداده داخلها، وحركة ارتداده، أي الكشف عن علاقات الاتصال والانفصال والقرب والبعد، والارتباط والانفكاك، بين النص والعنوان، وهي تشكل ما يسمى العلاقة التجاورية بينهما؛ (فإن تجاوز العنوان للنص، يهبه الاستقلالية والوجود الأنطولوجي، وهذا يعني بكل بساطة النظر للعنوان على كونه كائنا لغويا مكتملا، له كينونته ذات الطابع التفاعلي الانفكاكي في علاقته بالنص)² (حسين، 2007)، فمن هذا المنطلق يصبح عبارة عن فعل موجود في النص له وجوده المعترف به في العالم، ويمكن له أن يشكل علامة على مستوى المنتج النصي، من شأنها أن تسهم في تحريك البنية النصية.

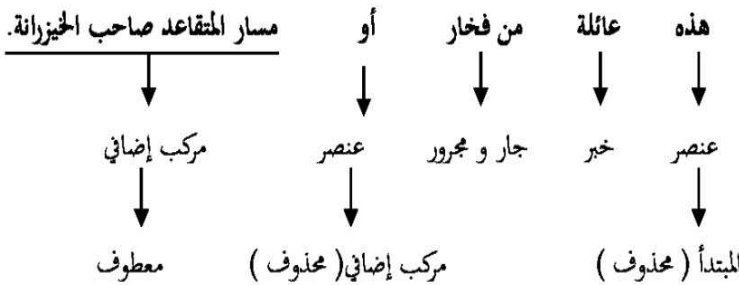
تحديد هوية العنوان ووظيفته وكينونته من خلال الحقل الدلالي والمعجمي الذي تفرزه البنية التركيبية له، يمكن من تحديد الفضاء الدلالي الذي تدور فيه بنية عنوان نص (عائلة من فخار . مسار المتقاعد صاحب الخيزرانة)، عن طريق التفاعل بين ألفاظ العنوان التي تركبها، والحقل الدلالي الذي يربطها عن طريق اكتشاف علاقات التضاد والترادف والتداخل، وغيرها من العلاقات التي يمكنها تحديد القيمة الدلالية للألفاظ في العمل السردي، في مجموعة مستويات منها:

1.3 مستوى البنية: على المستوى التركيبي ينتظم العنوان الرئيس (عائلة من فخار) في ثلاث فئات نحوية هي: حرف الجر (من)، واسم نكرة (فخار)، تكتسب منها التعيين الذي يزيل عنها الإبهام والشبوح، وتخصيصها لمعنى معين يتعلق بانتمائها إلى سياق التعيين. وبالتالي ينتقل الأثر الدلالي من المجال الواسع لكلمة (عائلة) إلى اللفظ (فخار) ليشكل هذا التركيب كائنا لغويا متميزا بمعناه المعجمي والدلالي والنحوي المحدد والواضح.

الملاحظ في إضافة حرف الجر (من) الوارد في التركيب العنواني للمسند: (عائلة من فخار) بمثابة محاولة تخصيص وظيفي للمسند عن طريق اكتسابه للمعاني الوظيفية لحرف الجر (من): (التي تتقمص دور القنطرة لتوصيل المعنى بين المركبين) ³ (حسين، 2007)، وهذه الدلالة التي يحملها حرف الجر تنعكس بالضرورة على الاسم المجرور بعده، فتتحدد وظيفته الدلالية أكثر، و(خدمة الجار ليست وقفا على الحدث وحده كما هو الشأن في الظرف، بل قد يخدم الحدث وحده، أو قد يخدم الذات وحدها، أو قد يخدم الجملة برمتها، وفي هذه الحالة الأخيرة، فإما أن يكتفي بتقوية ما في الجملة من معنى فقط، وإما أن يحمل إليها معنى جديدا لم يكن فيها من قبل) ⁴ (الأنطاكي، د.ت)، فيمتد المعنى وينتشر بتعدد الأحداث في النص الروائي.

البنية التركيبية هي مدخل لأسرار بنية العنوان (عائلة من فخار- مسار المتقاعد صاحب الخيزرانة .)، فما يثير الانتباه في هذه البنية تشكلها من عنوان رئيس (عائلة من فخار)، وآخر فرعي: (مسار المتقاعد صاحب الخيزرانة)، وتخلو العلاقة التركيبية بينهما من أية أدوات ربط ظاهرة، ليتحقق الربط المباشر بين العنوانين على مستوى أعمق حسب الترسيم الآتية:

الشكل 1: تركيب العنوان



في هذه الحال يغدو العنوان جملة مزدوجة تتشكل من ثلاثة مركبات: الأول إسنادي (هذه عائلة) يمثل بؤرة العنوان، وتتوقف عليه كينونته في الوجود، والثاني الإضائي الجار والمجرور (من فخار)، ويرتبط بالمركب البؤرة، من خلال (من الجارة) أما الثالث، فيتمثل في المركب الإضائي (مسار المتقاعد صاحب الخيزرانة)، يضم إلى المركبين السابقين بأداة الربط العاطفة (أو) التي تشترك في الإعراب والمعنى (لأن ما بعدها مشارك لما قبلها في المعنى الذي جيء بها لأجله)⁵ (المرادي، 1993) فهنا ينبثق المركب الإضائي (مسار المتقاعد صاحب الخيزرانة) ليكون تأويلا وتفسيرا للمركبين الأولين: (عائلة من فخار)، وهكذا يتوسل العنوان بالجملة المزدوجة المتعددة، من خلال أداتي الربط (من / أو).

2.3 حوار العنوان والصورة: تتحقق العلاقة بين العنوان واللوحة المرفقة على

غلاف الرواية من خلال حوار تناصي أو تناد بين خطاب لغوي وآخر تشكيلي فاللوحة هي عبارة عن امتزاج بين الوجود الإنساني والوجود الطبيعي: (شكل إنسان + أمواج بحرية + ذيل حوت + بقايا سفينة)، وتحتاج تأويلية الصورة إلى رسم العلاقة بينها وبين ملفوظ العنوان من جهة، وبين العنوان وموضوع النص من جهة أخرى وهذا بتتبع العلامات الشكلية، وفك الإبهام عنها بتأويلها.

إن تشابك الإنسان والأشياء في اللوحة يعكس الصراع الذي يقدمه العنوان للفت انتباه القارئ، فكأن اللوحة تعطي بإشارتها وقراءتها السيمائية قراءة أخرى للعنوان، تؤثر أولاً في تلقيه، لأن العنوان واللوحة بمثابة تبئير لاهتمام المتلقي واستقطابه بتفعيل الوظيفة الإشهارية للغلاف عبر أيقنة علامة (الفخار) لغويا وتشكيليا، ليغدو الفخار الفضاء الذي حدث العنوان فيه: (عائلة من فخار). حيث يتموقع الفخار كمكون طبيعي، ليجمع الروائي به بين دلالات الحياة (الماء) الذي يفتقد لها الفخار كشيء جامد، فيضفي على العنوان والصورة صراعا بين أقطاب الثنائيات "الموت/الحياة"، "الحركة/الجمود"، فكل من الخطابين: العنوان والصورة يندمج مع الآخر، ويؤكد الصراع بين الإنسان ووجوده، محاربا فكرة الموت الصوفية

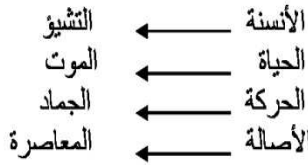
التي تشكل الهوس الذهني لـ (لخضر ولد الفخار) المتقاعد صاحب الخيزرانة ويظهر هذا الصراع جليا في مبدأ التسمية (ولد الفخار)، أما حطام السفينة المثبتة في الصورة يثبت الصراع بين زمانين أولهما أصيل تدل عليه الحالة السليمة للسفينة قبل انكسارها وهو زمن الأجداد، تلك الحلقة المفقودة لدى الإنسان المعاصر وآخرهما هو الزمن الحاضر الذي لم يحافظ فيه هذا الإنسان على الموروث الماضي فهو يحيا مبتورا من ماضيه، وهو الصراع الحقيقي الموجود في عائلة (ولد الفخار).
أما صراع الإنسان داخل البحر فهو محاولة منه لإنقاذ نفسه من خطر الموت الأكيد، وكذلك هو مسار المتقاعد، يعكس الصراع بين الأصالة (ولد الفخر) التي يحاول الحفاظ عليها من خلال أسرته التي داهمتها تخوم المعاصرة والحياة المدنية الشائبة التي أدت إلى طمس معالمها، تتمثل في التشتت والتلاشي، حيث (لا شيء أصبح يربط موسى بعائلته التي شبهها يوما بباخرة مثقوبة في قلب الأمواج الهائجة ...)⁶ (مفلاح، د.ت)، والملاحظ في هذا المقطع مع قصره أنه يجمل صورة الغلاف أو يعيدها من خلال الوعي بالواقع الذي تعيشه عائلة (لخضر ولد الفخار) على لسان أحد أبناء هذه العائلة، وتخلف وعيا بكلية الأزمة التي تعاني منها، وهي صراع الهوية بين المعيش والواقع، حيث تمثل للأزمة بثقب الباخرة، ويمثل للواقع بالأمواج الهائجة، تمتد وتتفرع مع أفراد العائلة كل حسب مساره السردى.

3.3 حوار النص والعنوان: في ضوء المقاربة التركيبية للعنوان يمكن قراءة

المستوى الدلالي الذي يتم فصل بدوره إلى واقعتين (عائلة) و(فخار)، من حيث أن الثانية تنجز وجودها وتثبت كيانها من خلال الإضافة المعنوية، والتعريف من الأولى فالعائلة لا يمكن أن تثبت كيانها الدلالي إلا من خلال إضافتها للفخار (الفخار) هو أولا يعد تسمية، وثانيا هوية للعائلة، وثالثا تمييزا قصديا لتنحية كل عنصر يمكن أن يدخل إطار التفسير الدلالي للفظ العائلة لتكون العائلة المقصودة لهذه الرواية هي عائلة (ولد الفخار)، وهو بدوره لا يمكن أن يتأسن إلا

بإضافته إلى هوية تملك حياة مؤنسنة (العائلة)، وتبعاً لدلالة الملكية التي تسيطر على علاقة الواقعتين، حيث يحاول الفخار السيطرة على الوجود الماهوي للعائلة كما تحاول العائلة طمس التشيء الذي تعاني منه بسبب انتمائها للشيء المادي (الفخار)، فالصراع واضح بين ثنائيتين تحاول إحداها إثبات وجودها أمام الأخرى نجمها في الترسيم التي تحوي مستلزمات علاقة الصورة في طريقة التحول من إلى:

الشكل 2: ثنائية التحول السردية



العائلة تعني الحياة: الحركة، والرغبة في التغيير والتطور والتنقل من حال إلى حال أخرى، أما الفخار فهو عبارة عن موت الحركة، أو الجماد الذي وضع على هيئة لا تتغير ولا تتبدل وهنا تفرض العائلة جذور رفض الأصالة والبقاء على مسار التراث إلى الحياة المتحضرة مسايرة للتمدن، الذي هو عكس الفخار الذي يرجع بالدلالات الحية له إلى عكس روح الأصالة والتراث، وبالتالي يشتد الصراع الدلالي الذي ينبني على متضادات متصارعة: (الأنسنة/ التشوي)، (الحركة/ الجمود) (الأصالة/ المعاصرة)، تنتهي بانتصار قطب على آخر، يرسمه الروائي لشخصياته التي تحرك الأحداث وتحدد معالم الموضوع التي تدور حوله، في حين ترسم العلاقة بين العنوان الرئيسي والعنوان الفرعي في ترادف تفسيري، من شأنه أن يجلي الغموض الذي شاب العنوان الرئيسي، حيث انخفضت وتيرة العنوان (عائلة من فخار) بالعنوان الفرعي (مسار المتقاعد صاحب الخيزرانة)، الذي يكرس بدلالاته انعكاساً ارتدادياً لمسار العنوان الرئيسي، ويختزل الظاهرة السردية في تحديد المسار

المرهون بمسار صاحب الخيزرانة، فلا يبقى من دلالات العنوان المهمة إلا تتبع هذا المسار وجلاء الغموض عنه، ما كان يحكم التضاد في الثنائيات المذكورة سابقا ليصبح الكون الدلالي خاضعا لسيطرة المحور الدلالي (الأصالة / المعاصرة).

من هنا يمكن أن نفسر دلالة المسار في العنوان الفرعي، الذي يقوم على تضاد الحركة (من الماضي إلى الحاضر)، و(من الحاضر إلى الماضي)، فالمسار يتعرف بالضاف إليه (المتقاعد) ليغدو ميزة له، متخليا عن دلالاته المعجمية إمعانا في الدلالة على حركة المتقاعد وكيفية رسمه لمساره الذي يغدو بدوره المسار الدلالي للعنوان والنص، وبالتالي نلجأ إلى قراءة العنوان في ظل النص، لتفكيك السر المجازي للعنوان بالنظر إلى العلامة . البؤرة . (عائلة من فخار)، بوصفها واقعة اجتماعية تمثل الكيان أو الوجود الاجتماعي، فالأسرة أو العائلة جزء لا يتجزأ من المجتمع الذي تنتمي إليه، وهي بذاتها تمثل كيانا وجوديا فرديا من خلال مكوناتها: (أفراد، تقاليد أعراف، تاريخ، ماضي، حاضر، مستقبل،)، ويتحقق هذا الكيان من خلال الفرد الذي يعد مكون هذه العائلة وأساس وجودها، ويتم التركيز على شخصية الأب محور الأسرة (المتقاعد صاحب الخيزرانة)، عندها يشتمل العنوان جملة تكافئية هي:

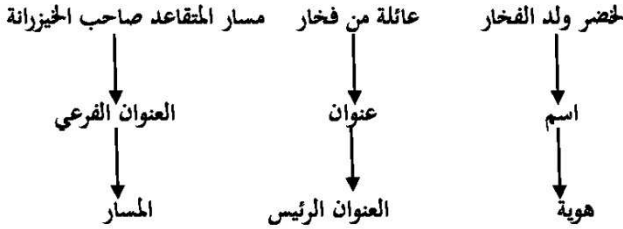
الشكل 3: التكايف الدلالي

عائلة من فخار ↔ مسار المتقاعد صاحب الخيزرانة

استنادا إلى الترسيم نلاحظ أن عناصر العنوان ما هي إلا أطراف معادلة ذات مسارين متكافئين، فالأب (لخضر ولد الفخار) هو الذي أنشأ العائلة، وهي نتاج مسار حياته وقراراته ومخططاته، بالتالي نلاحظ تشابكا لفظيا بين الاسم والعنوان ومن هذا المبدأ يحقق العنوان انتشاره في النص، ويحقق النص ارتدادا في العنوان

ولكي نحصل على هذا المسار (الانتشاري/ الارتدادي)، يجب الوقوف على مسار المتقاعد لتوضيحه وتبيين دلالة التسمية والدلالة النصية للعنوان فيما يأتي:

الشكل 4: العنوان والمسار السردى



يمتد العنوان في علاقته الدلالية وينتشر من خلال المسار السردى، ليعود ويختزل في الهوية التي تشكل المنحى الذي يرسم اتجاهه وحضوره في النص، ويتم تخفيف التوتر لمفردتي (عائلة) و(فخار) على صعيد التلازم الدلالي بينهما، فهي تستند إلى وجود قصدي في المجتمع الإنساني، وإذا كانت العائلة تحيلنا إلى ذلك النوع من الترابط والوجود والهوية الإنسانية والهوية الذاتية، التي تعني التاريخ والبعد الزمني للوجود الإنساني والاجتماعي، فالفخار الذي هو مكون اصطناعي مصدره المادة الخام (الطين)، يحيلنا إلى مكون طبيعي، يعكس في دلالاته السطحية الوجود الكوني للمكان، والإنسان الذي خلق من طين ويعود إلى الأرض بعد مماته ويبعث منها يوم القيامة، وبالتالي يرسم الفخار المصنوع من الأصل الذي يعد فرعاً من الأصل ويعود إليه، وبالتالي تبحث الدلالات العميقة عن الحقيقة البشرية كيف كانت وكيف أصبحت، وما هي نتائج التحول عن الطبيعة البشرية إلى طبائع أخرى مكتسبة قد تحافظ على الأصالة، كما أنها قد تشوه معالمها، فلا يمكن الرجوع إليها ثانية.

4.3 مسار التجاذب: (الانتشار/ الارتداد): يرسم العنوان صراعا بين الوجود

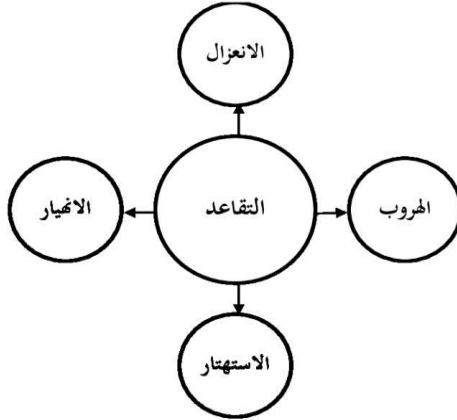
واللاوجود، بين الهوية والتشتت، بين الأصالة والمعاصرة، هذا التأويل يمكن رده إلى العنوان الفرعي (مسار المتقاعد صاحب الخيزرانة)، الذي يرسم آفاق المواجهة بين مفردتي العنوان الرئيس (عائلة من فخار)، بتحديد مساره وإثبات هويته وللإمساك بهوية العنوان، يمكن اختزاله في الامتداد النصي عبر تتبع المسار السردى للمتقاعد صاحب الخيزرانة، ويمكن تقسيم هذا المسار إلى ثلاثة أنواع: سيكولوجي وديني، واجتماعي، مجموعة في شخصية (لخضر ولد الفخار).

تحتوي رواية (عائلة من فخار) ثمانية عشر مقطعا سرديا، خصص منها ستة مقاطع للمتقاعد صاحب الخيزرانة (لخضر ولد الفخار) (3.6.9.12.15.18) ومن خلال هذه المقاطع نحاول رصد المسار السردى الذي من خلاله ينتشر ويمتد العنوان في النص؛ فمن هو (المتقاعد صاحب الخيزرانة)؟

هو (لخضر ولد الفخار) رب عائلة (ولد الفخار): (درس في المتوسطة التقنية وتخرج منها بشهادة تقني في الميكانيكا، اشتغل بشركة تحميص القهوة، ثم التحق بمؤسسة المكيفات الهوائية منذ تأسيسها في السبعينيات على مساحة (البحيرة) التي كانت موجودة بالجهة الغربية من المدينة، وقد ظل يشتغل بها حتى أصبح رئيس مصلحة الصيانة، وبعد ذلك أجبر على التقاعد المسبق)⁷ (مفلاح، د.ت).

إن القارئ للعنوان لأول وهلة يعتقد في قرارة نفسه بسمو عائلة لخضر إلى مرتبة الفخر الذي سادها من خلال الجيل القديم، منذ زمن الجد الكبير "يوسف" الذي ناضل من أجل الوطن بمشاركته في الثورات الشعبية التي شهدها، زمن الجد (المهدي) الذي رفض التجنيد الإجباري للحرب العالمية الأولى الذي فرضه الاستعمار، إلا أن المتقاعد لم يحمل سوى أعباءه النفسية التي نمت من عدم مواجهته للمطبات الحياتية التي وقع فيها؛ ويمكن أن نجمل مسار حياته الاجتماعية في الترسيم الموالية:

الشكل 5: مسار التقاعد



نلاحظ من خلال الترسيم أن الإشكالية التي أدت إلى تنويع المسار التهميشي والإشكالي للمتقاعد تكمن في سواحد هو التقاعد أو بمعنى اجتماعي آخر (البطالة)، فالأزمة النفسية لديه بدأت منذ إحالته إلى التقاعد المبكر، وعدم حصوله على وظيفة أو عمل آخر، ومشكلته الاجتماعية التي بدأت من النقطة ذاتها، تكمن في عدم حصوله على المال الذي يعيل به عائلته الكبيرة الكثيرة العدد أدى به إلى الاستهتار بواجبه حين (هدد زوجته يمينه بمغادرة البيت إن هي طالبتة بدفع فواتير الماء والكهرباء والهاتف) ⁸ (مفلح، د.ت)، فالتهديد من هذا المنطلق يعد استهتاراً بالوجود الحياتي لجميع الأشخاص الذين هم تحت وصايته ورعايته ونتج عنه الهروب، الذي كان على نواح عدة:

— هروب نفسي: العزلة التامة عن الوجود الإنساني. إلا ما تعلق بالشيخ المنور.

وهو إمام المسجد الذي يرتاده.

هروب اجتماعي: العزلة عن الناس وخاصة الأقربين كالأولاد والمكوث في الغرفة وغلق الأبواب، أدت العزلة إلى الاتجاه نحو الطريقة الصوفية وليس التصوف بما تحمله الكلمة من معاني التصوف، لأن هذه المنطقة (غليزان، وهران، تلمسان ..) يكثر فيها الاتجاه الصوفي فقد (انهمك كعادته في مطالعة كتب التصوف وتراجم

الأولياء الصالحين)⁹ (مفلاح، د.ت)، والانغماس في قراءة الكتب الصوفية والاهتمام بتاريخ الأولياء والصالحين ممن وجدوا في هذه المنطقة يعكس الهروب من الواقع الذي يعيشه المتقاعد مع عائلته إذ (كان يجد متعة كبيرة وهو يتلو آيات القرآن الكريم أو يردد المدائح الدينية أو يسبح بالذكر وورد الطريقة الصوفية)²⁰ (مفلاح، د.ت) اعتقادا منه أن الحياة الحقيقية تكون بين العبد وخالقه، بعيدا عن الواقع المعيش ومحاولة استبداله بالوهم الصوفي الذي يعتمد فيه على ما يسمى بالأولياء الصالحين أزعج هذا الوضع زوجته التي أعربت عن تدمرها عن الحالة التي يعاني منها منزلها، إنه (بيت غريب لم يعد صاحبه يهتم بشؤونه اليومية ... لقد سافر إلى منطقة جبل الأخيار)²¹ (مفلاح، د.ت)، واختياره لهذا النوع من الحياة هو فرار من حقيقة الواقع ليس بحثا عن الذات المفقودة أو وعيا بها، ولكن هروبا من الذات نفسها التي تعي تماما حقيقة الواقع الذي تنتمي إليه: (أصبح الرجل ملازما لمقر الزاوية الخضراء)²² (مفلاح، د.ت)؛ ولا تعد العزلة حلا طبيعيا لمشكلة الفقر أو الحاجة، أو مواجهة للمسؤولية نحو العائلة.

أما مبررات الروائي للظروف النفسية أو السيكولوجية، تبدو ضعيفة من خلال المشاكل المطروحة من خلال شخصيات الرواية، فنلاحظ أن هذه المشكلات هي عامة بالنسبة للمجتمع إذ لا يوجد بيت لا يحتوي هذه المشاكل، سواء كانت مادية أم معنوية، لكن الذي يركز عليه الروائي في محاكمة المتقاعد من خلال سيكولوجيته المريضة التي ظهر بها في هذا العمل السرد من خلال وصفه لحال المتقاعد الذي (فجأة، انهارت أحلامه وأصبح شخصا وحيدا، لا أصدقاء له، ولا مال لمواجهة المستقبل المجهول .. وجد نفسه في خصام دائم مع أفراد عائلته ..)²³ تبين ضعف شخصيته، التي لم تكتسب شيئا من الماضي لتواجه الحاضر أو المستقبل، ويبقى السبب غامضا (فتفكيره المستديم في لغز الموت، كاد يفقده عقله لولا الشيخ العارف بالله الذي نصحه بمداومة الذكر)²⁴ (مفلاح، د.ت)؛ ويحيلنا الروائي إلى بعض الأسباب التي جعلت المتقاعد يعاني هذه الحالة من التآزم والضياع

من خلال ترهات السياسة التي يستعرضها بسرعة أثناء الرواية منها: (التعددية الحزبية وأحداث أكتوبر 1988، وخصوصة المؤسسات العامة..)، ولكن التغيرات السياسية بالنسبة لمجتمع في مرحلة انتقالية تعد حتمية، ولا يمكن أن تؤثر بالشكل السريع والقاسي على كيان الأسرة كما حدث لعائلة (ولد الفخار)، ومنذ غلق مؤسسة (المكيفات الهوائية) التي كان يشتغل بها ازدادت حاله سوءاً، وغرق بعد تقاعده المسبق في عالمه الخاص)²⁵ (مفلح، د.ت)، لقد فضل المتقاعد العزلة كسلوك سلبي لم يمله عليه أحد من أسرته سوى زوجته التي كانت تعرب عن خوفها من الحال التي آل إليها، (إنها لا تريده أن يصبح ضحية للفرغ المدمر أو يغرق في عالم العزلة المخيفة)²⁶ (مفلح، د.ت)، إلا أنها لم تبادر في إخراج العائلة من أزمته، أو السيطرة على سلوك المتقاعد الذي انحرف عن العرف الاجتماعي السائد في المجتمع الجزائري، أو ما يمكن أن نسميه بالانحراف الاجتماعي والسلوكي للمتقاعد (صاحب الخيزرانة) الذي جعل حياته صورة مصغرة عن الحالة السياسية السائدة في البلاد فترة الثمانينيات، وما الأحداث الواقعة إلا نتائج لأفعاله مع أسرته ولنفسه.

مسار انحراف المتقاعد صاحب الخيزرانة: الانحراف في معناه العام يعني الانزياح أو الشذوذ عما هو مألوف ومتعارف عليه (المعيار)، ومعالم الانحراف من خلال السلوكات التي تظهرها شخصية المتقاعد صاحب الخيزرانة تتحدد (بواسطة نسق فرعي للمعرفة والمعتقدات والاتجاهات التي تجعل أشكالاً معينة من الانحراف في مواقف معينة: ممكنة، أو مسموح بها أو مقررة، وهذه جميعاً يجب أن تكون قائمة في المحيط الثقافي للفاعل في بداية الأمر، ثم تتسلط على الشخصية وتصبح مستدمجة داخلها، مثلها في ذلك مثل أية عناصر أخرى متصلة بالثقافة المحيطة (جابر، 1987)، تعتمد في هذا النص على العلاقات الأسرية التي من خلالها يمكن الحكم على استقامة مجتمع ما وتطوره أم تخلفه، لأن الأسرة هي عماد

المجتمع والأساس الذي يقوم عليه، فإذا ما تحدثنا عن انحراف ما داخل العائلة، بحثنا عن أسبابه خارجها أي في المحيط الذي تنتمي إليه وتتعايش معه، ثم نلجأ إلى وسط الأسرة، لنذكر عواقب هذه الآثار على العائلة وخاصة العناصر المتضررة منها، أما خارج عائلة "ولد الفخار"، فقد أهمله الروائي ليجعل القارئ مركزاً على ما يحدث داخل الأسرة التي تتكون من الأفراد في الجدول الموالي:

الجدول رقم 1: عناصر عائلة (ولد الفخار)

الفرد	الحالة الاجتماعية والأسرية
لخضر	الأب: متقاعد تقاعداً مسبقاً.
يمينة	الأم: البدينة المريضة بضغط الدم.
محمد	مهندس بمديرية الأشغال العمومية، تزوج طبيبة ورحل معها إلى مدينة الشلف
الحبيب	تحصل على عمل حارس ليلى بمؤسسة النقل البري يستعد للزواج بجد من ابنة خاله قويدر النّساج .
موسى	انحصر تفكيره في جمع المال من نشاطه في بيع الملابس المستوردة بساحة (السوق السوداء) من أجل توفير مصاريف الهجرة السرية إلى إسبانيا إذ أصبح حلمه الوحيد هو أن (يحرق) أي (يهاجر) إلى الضفة الأخرى من البحر. شعاره (أفضل أن يأكلني الحوت ولا يأكلني الدود).
رشيد	انقطعت أخباره منذ سافر إلى باريس للدراسة.
يوسف	البطال، لم يعد قادراً على الاستماع إلى نصائح والديه، قضى شهرين حبساً نافذاً بسبب الاعتداء على طالبة بثانوية حي " تلمينة".
خروفة	مهندسة، تبحث عن عمل منذ تخرجها من جامعة وهران ولم تجده.

المصدر: محمد مفلح، رواية عائلة من فخار

إن عوامل التوتر الأسري يمكن أن ترد إلى أسباب اجتماعية، مع ملاحظة أن هذا التوتر لا يمكن أن ينشأ ببساطة نتيجة لعامل واحد بعينه، إذ إن تفكك الأسرة يتخذ الطابع التدريجي ويكون محكوما بعدة عوامل متداخلة، يصعب في بعض الأحيان أن يفصل بعضها عن البعض، وقد تكون هذه العوامل مزاجية تعود إلى صفات وراثية تحدد ردود الفعل الانفعالية والعاطفية عند الفرد، ويظهر الفرد بهذه الصفة اتجاهها انطوائيا، هذا ما تعكسه شخصية "لخضر ولد الفخار"، فالعوامل الوراثية للانحراف لا تكون في شخصية الجد "المهدي"، وقبله الجد "يوسف الكبير" اللذين كانا يمثلان رمزا للكفاح والفخر للعائلة وإنما يكمن في الجد "سي العيد" فإذا تتبعنا المسار السردى لـ "سي العيد" وجدنا ذلك الخلل الانحرافين في سلوكه هذا الانحراف الذي يمكن أن نجمله في مختصر الأحداث التالية:

_ كان رجلا غريب الأطوار.

_ اختلف مع أولاده الثلاثة بسبب زواجه بفتاة يتيمة في سن حفيدته.

_ حاول بيع شقته القديمة .

_ لم يقبل تدخل أولاده في شؤونه الشخصية .

_ لما ضغط عليه الأولاد قرر الرجل الذي يبلغ من العمر ثمانين عاما أن يضع

حدا لحياته فرمى بنفسه تحت سيارة جيلالي العيار.

_ لم يجد من يحميه من أولاده فانتحر.

المسار السردى لسلوك الأب أو الجد (سي العيد)، من خلال علامات الصراع بين

أولاده، وانتحاره بطريقة غامضة ليس لها سبب، سوى العداوة التي نشأت بينه وبين

أولاده الثلاثة، على الرغم من أن (لخضر) لم يكن يهتم أو يكثر لمشاكل أبيه لكنه

في الوقت نفسه عانى من المشكلة نفسها في بيته، وهي عدم قدرته على مواجهة

أولاده، والالتقاء بين شخصية الابن والأب السلوكية تكمن في محاولة كل منهما

الفرار أو الهروب من المواجهة، ف (لخضر) واجه حياته بالهروب إلى جبل الأخيار

والابتعاد عن الأسرة، وهروب الأب (سي العيد) كان عن طريق الانتحار، وكلا

السُّلوكين انحراف عن عادة الإنسان، فالتفكك الأسري يشير (إلى أي وهن أو سوء تكيف وتوافق أو انحلال يصيب الروابط التي تربط الجماعة الأسرية كل مع الآخر ولا يقتصر وهن هذه الروابط على ما قد يصيب العلاقة بين الرجل والمرأة، بل قد يشمل أيضا علاقات الوالدين بأبنائهما) ⁸ (غيث، 1987)، فالإنسان وهبه الله العقل المفكر والمدير، والإيمان القوي لمواجهة ومجابهة المشاكل والصعوبات الحياتية، لكن الإيمان القوي استعمله (لخضر) كملجأ يهرب به من مواجهة مشاكله الحياتية، فممارسة الطقوس الصوفية والبحث أو التنقيب عن قبور الأولياء الصالحين وزيارتهم، والغلو في التمسك بالطقوس الصوفية، هي محاولة للانغماس الكلي في المعتقد الديني، خاصة أن هذا المعتقد ليس وراثيا، فالروائي لم يذكر أن الجد (يوسف الكبير) أو (المهدي) أو حتى (سي العيد) كان صوفي الاتجاه لكن (لخضر ولد الفخار) ابتدع هذا الاتجاه كونه ألغى علاقته بالحياة الطبيعية، وأصبح يبحث عن الموت وأسراره لما (اكتشف بعد اتصاله بالشيخ (المنور الحسيني) أن الإنسان ولد ليموت، وبموته تبدأ الحياة الحقيقية، بعد تقاعده حيره كثيرا لغز الموت فخالط الناس وطاردهم بأسئلته المحرجة ولكنه لم يستفد بأي رأي سديد بل ازداد حيرة) ⁹ (مفلاح، د.ت)، إلا أن لغز الموت والحياة لا يكون دافعا للوصول إلى الفكر الصوفي أو تقليد التصوف كمنهج أو اتجاه، ويبدو أن الروائي أراد لهذه الشخصية أن تتأقلم مع الاتجاه السائد في الغرب الجزائري كعرف أو تقليد اجتماعي، أو نقلة نوعية لمسار المتقاعد: (لقد تخلصي والدها عن ارتداء بذلاته الأنيقة وربطات العنق الحريرية، وعضها بالسراويل العربية وبخاصة (الشرقي) والعباءات الفضفاضة البيضاء، والعمامة الصفراء، أو (الكنبوش الأبيض)، كما استعان على المشي بخيزرانة أهداها إليه والده (سي السعيد) قبل وفاته بسنة واحدة فقط) ¹⁰ (مفلاح، د.ت)، واستغله بشكل خارج عن العادة أو المألوف، فوصل (لخضر) إلى مستوى التلاشي أو حد الانهيار.

تبدأ عائلة (ولد الفخار) في المسار الانحرافي من خلال العلاقة السلبية بين الأب والأبناء، ونتج عنها انحراف الأبناء عن المجتمع وعن المسار الطبيعي للعائلة التي تتكون من روابط مثالية تطورها الوجود الراقي للإنسان داخل المجتمع، فعلاقة الأب بأسرته تختصر في العلاقات الاجتماعية التي بينها معهم، حين قال له أحد أبنائه: (لم نستفد منك شيئاً، تركتنا للضياع)^{1 3} (مفلح، د.ت)، تتضح العلاقة التي تربط (لخضر) بعائلته من خلال الفجوة السلبية التي رسمها لخضر بعد تقاعده المبكر، فالتقاعد كان أول خطوة نحو انهياره كذات فاعلة ومتفاعلة ضمن الإطار العمودي للأسرة، وكأن الانهيار الحقيقي له بدأ من خلال فقدانه للتفاعل بينه وبين عمله الذي لم يستطع تعويضه، وفضل التخلي التام عن الحياة العملية وهذا انحراف سيكولوجي محض، يعكس الوسواس الغريبة التي انتابت تفكيره بعد إحالته إلى التقاعد وبحته مباشرة عن لغز الموت المخيف، ولجؤته إلى التصوف (ولولا شيخ الزاوية لأصبح ضحية لوساوس كثيرة)^{2 3} (مفلح، د.ت)، تمكن موضوع التصوف من القضاء على التوتر في تفاعله مع الآخرين: (المجتمع، زوجته أبنائه)، حيث يفرض على نفسه تمسكه بالانزواء، وكبت الحاجات، واستبدالها بالذكر والأوراد الصوفية، وزيارة قبور الأولياء الصالحين، وهذا انحراف ديني ف: (رغم كثرة التعريفات التي عرف بها التصوف الإسلامي في كتب التصوف وغيرها فإننا نستطيع أن نقول أن التصوف كما يراه الصوفية في عمومها هو السير في طريق الزهد، والتجرد عن زينة الحياة وشكلياتها وأخذ النفس بأسلوب من التقشف وأنواع من العبادة والأوراد والجوع والسهر في صلاة أو تلاوة ورد. حتى يضعف في الإنسان الجانب الجسدي ويقوى فيه الجانب النفسي أو الروحي فهو إخضاع الجسد للنفس بهذا الطريق المتقدم سعياً إلى تحقيق الكمال النفسي كما يقولون وإلى معرفة الذات الإلهية وكماالاتها وهو ما يعبرون عنه بمعرفة الحقيقة)^{3 3} (هلال 1395هـ)، فمحاولة أو تلهف (لخضر) إلى معرفة حقيقة الموت، ولجؤته إلى الشيخ

(المنور) لفك لغز الموت والرجوع إلى الاطمئنان النفسي ما هو إلا تحاشيا للأنموذج القيمي للشخصية السوية وتسويتها بطريقة انحرافية.

لقد كانت الدافعية الانحرافية سيكولوجية محضة، والإحباط النفسي الذي عانى منه (لخضر) انقلب بشكل عكسي على علاقته بأبنائه، فوقع فيما يسمى بالتوتر، وعدم التوافق مع رأي أبنائه وزوجته (يمينه)، التي حاول كثيرا التخلي عن التشابك معها أو التفاعل معها، وذلك من خلال هروبه الدائم من البيت لكي لا يستمع إلى شكواها من مشاكل الدنيا وهمومها.

دخل (لخضر) في مرحلة الانطواء على النفس، الذي سد مسد التفاعل العائلي (وحتى هو كان يكن لوالده حبا كبيرا لكنه لم يستطع التعبير عنه)^{3 4} (مفلاح د.ت) ما دفع به إلى بناء عالمه الخاص، فحالة الكبت لمشاعره مع والده عكسها على علاقته بأبنائه (لقد تأثر كثيرا لموت والده سي العيد، وقد بكاه كثيرا ولكن لم ير أحد دموعه)^{3 5} (مفلاح، د.ت)، فكانت سلوكياته خطأ موصولاً بطفولته التي نشأ عليها (لقد جبل على كبت عواطفه أمام الآخرين، وصار كلما أكثر منذ توطدت علاقته بالشيخ المنور)^{3 6} (مفلاح، د.ت)، ثم حقر الوجود الإنساني بالتخلي عن علاقته بالناس (ثم حمل حذاءه القديم الذي انتعله عند عتبة المسجد، وخرج دون أن يكلم أحدا من جيرانه المصلين، رأى بأنه في حاجة إلى سبر أعماقه بعيدا عن كل الناس)^{3 7} (مفلاح، د.ت)، ثم حقر من حاجاته التي لم يشبعها فعلا كالعامل، والعلاقة بينه وبين زوجته، وعلاقته بأبنائه (تمنى ألا يلتقي بزوجته)^{3 8} (مفلاح، د.ت).

يتبين أن البناء الدافعي للأنما (لخضر) يتميز بالتناقض الوجداني، بين حنين حب الآخر (الزوجة، الأبناء، المجتمع)، وحب الله، فمن جهة يريد أن يخرج إلى عالم العبادة بتصوفه، وهذا يفرض عليه حب الله من خلال مخلوقاته، وفي الوقت نفسه كبت مشاعره والانطواء عن الآخر، فكان التفاعل بين التناقضات الوجدانية

في النَّسق الدَّافعي بين الأنا والآخر هو مصدر الانحراف لديه، وهذا ما أفضى إلى السَّلبية في شخصيته التي بنت انحرافا اجتماعيا متصاعدا نحو الغلو الذي أدى إلى تلاشي الروابط الاجتماعية بينه وبين أسرته ومجتمعه، وبينه وبين نفسه، فدين الإسلام (لا يسلك في تربية الإنسان الطريق الذي سلكه المتصوفة في تربية الإنسان وإنما يسلك في التربية إلى تقوية الإيمان بالله وباليوم الآخر وجميع ما يجب الإيمان به والعمل بالشريعة في حدود استطاعة الإنسان بالإتيان بالواجبات والإقلاع عن المحرمات والابتعاد عنها كلية، ولذا أقول إن سلوك المتصوفة في تربية الإنسان سلوك منحرف بعيد كل البعد عن المنهج الذي جاء به الإسلام وأمرنا أن نسلكه ذلك لأن السلوك الذي يسير عليه المتصوفة في التربية يحطم معنويات الإنسان ويسعى دائما إلى أن يفصل الإنسان عن هذه الحياة نهائيا حتى يصبح عضوا لا قيمة له في هذه الحياة وهذا سلوك يختلف تماما مع السلوك الذي دعا إليه الإسلام ذلك لأن الإسلام دين شامل كامل يدعو الإنسان لكي يقوم بوظائفه في هذه الحياة على أكمل وجه وأتمه)⁹ (إدريس، 1998) وهذا الميل العقائدي للمتقاعد صاحب الخيزرانة قضى على حياته الاجتماعية، لخصه الروائي في الهروب الذي ختم به (لخضر) علاقته بعائلته، وعدم قدرته على استعادة العائلة أو الروابط الأسرية المفقودة، فقد ترك ابنه موسى البيت متجها نحو الجزائر العاصمة، وترك ابنته خروفا البيت متجهة إلى وهران مجهولة المصير، ودخل ابنه يوسف السجن بسبب هجومه على جيلالي العيار ومحاولة قتله، وعدم عودة ابنه محمد من الشلف لمعرفة أخبار أسرته وعدم اهتمامه المطلق بها.

وبذلك يمكن أن يلخص المسار السردى للمتقاعد صاحب الخيزرانة انحرافا على مستويين:

مستوى السيطرة: بما أن (لخضر) ولد الفخار هو رب عائلته فله سيطرة عليها من الناحية المنطقية الاجتماعية، لكنه لم يتجاوز حدا رسمه لنفسه، حيث كان

منطويا غارقا في عالمه الخيالي البعيد كل البعد عن الواقع، فلم يكن موجها ولا فاعلا، ولم يسع إلى وضع كل فرد في العائلة موضعه الخاص به، فقد ترك "خروفة" تقرر حياتها بنفسها، ولم يأبه لمشكلتها مع (جيلالي العيار)، وتركها تمر بالأزمة وحدها وتدفع الثمن، كما لم يأبه لرحيلها إلى وهران .

مستوى الإذعان: يشير (إلى وجود العنصر الامتثالي وارتباطه بالتركيز على الآخر كشخص، ولكنه يتميز بانعدام فاعلية التوجيه، حيث يضطر الأنا إلى الخضوع إلى كل رغبة يبيدها الآخر)^{4 0} (جابر، 1987)، ذلك ما نجده في علاقة المتقاعد بابنه (يوسف) (في الماضي القريب لم يهتم الرجل بمصير ولده، لم يشغله حبسه لأول مرة بسبب الاعتداء على طالبة، ولم يقلقه مصيره لما ألقى عليه القبض مع حمولمرار وحماني الهدة وشبان آخرين بسبب تناولهم الخمر في مكان عمومي)^{4 1} (مفلاح، د.ت)، وبسبب تصرفاته وأخلاقه السيئة (ومنذ ذاك الحديث المتشنج، امتنع لخضر عن إسداء النصائح إلى ابنه البطال الذي قرر المواجهة بمفرده)^{4 2} (مفلاح، د.ت).

لقد أذعن (لخضر) إلى رغبة ابنه في مواجهة مصاعب الدنيا وحيدا، واتبع طيش الابن الذي يحمل على كاهله مشاكله: البطالة من جهة، وكراهيته (لجيلالي العيار) الذي يظنه قتل جده (سي العيد)، وهدم حياة أخته (خروفة)، وفشله في الحب، وتعرضه للخيانة من قبل الفتاة (سارة المراجي)، حالة الفقر وكراهيته لظروفه الاجتماعية وسخطه على الدنيا وعلى الناس فقد (تمنى تدمير نفسه وتدمير العالم كله، لقد حاول مرارا أن يقتل كل مشاعر الشر المترسبة في أعماق نفسه، ولم يستطع ذلك، فكل يوم تزداد خواطره المحمومة وهو جسه المرعبة ويزداد حقه على هذا العالم اللامبالي بهوممه، ثم تستولي عليه كل هذه المشاعر الرهيبة؟ ما مصدرها؟ أي نابعة من مرض الحسد أم من إحساسه بالحرمان؟)^{4 3} (مفلاح، د.ت)، فانحراف (يوسف) هو نتاج لانحراف والدّه في

الإذعان لرأيه وتركه وحيدا في عالم لا يرحم، خاصة أنه لجأ إلى رفقاء السوء وارتكب المحرمات، فنلاحظ أن الوالد لم يكن يكثرث لابنه بعد صدامه الأول معه.

لم يستطع (يوسف) التخلي عن الانحراف الذي جبل عليه من خلال عدة أسباب تعود إلى عامل البطالة، وتخلي والده عنه، وقسوة الظروف المعيشية، والسوابق العدلية التي عليه، والفقر، وعدم وجود سند في العائلة يحمل معه همومه، عدم تفهم والدته لظروفه القاسية ونعته بالفشل؛ كل هذه الظروف أدت إلى انحراف (يوسف) وعدم قدرته الامتثال للأنموذج المعياري للإنسان الصالح، فنمت النتيجة السيكولوجية لمسار السلوك عنده على السلبية المطلقة التي أدت إلى انهياره وتلاشي وجوده الاجتماعي، ودخوله السجن بعد ارتكابه جريمة محاولة القتل، هذه العدوانية في شخص (يوسف) ما هي إلا نتيجة حتمية للاغتراب الذاتي الذي عانى منه في ظروف الوحدة القهرية، فما كان لديه ليقدمه للآخر سوى أشكال مختلفة من العدوان كعلاقته بالفتاة (سارة مجاري)، و(جيلالي العيار)، والده، خروفة والدته، وإيمانه بفشله جعله يتبع خطوات الشر النفسي المنبني على أسباب الفشل وإيمانه به، وحين اختلى بنفسه (ونفت الدخان نحو السماء ثم صاح مخاطبا نفسه: أنت شخص فاشل .. فاشل ..

لأول مرة يشعر بأنه مقبل على مواجهة خطر مجهول)^{4 4} (مفلح، د.ت)، نسف كل فجوة أو ثغرة يمكن من خلالها تدارك ما هو مقبل عليه أو ما يميز شخصيته أو مساره الحياتي من خلال مساره السردى، ولكنه يبقى مسارا متفرعا من المسار الانحرافي والسلبي للوالد (لخضر ولد الفخار) والجد (سي العيد).

يؤمن الروائي بتوارث السلوك، ويحقق نظرية الموروث الاجتماعي من خلال نقل تجارب الفشل في تحقيق التطور الاجتماعي، محمدا إياها بفترة ما بعد الاستقلال حين بدأ بالحديث عن سلوك الجد (سي العيد) ووصولاً عند الحفيد (يوسف)، على اختلاف المسارات السردية للشخصيات إلا إن ردود الأفعال والسلوكيات كانت تنبثق

من منطلق فكري واحد؛ وهو التفكك وسلبية التواصل وفشل تحقيقه بين أفراد الأسرة الجزائرية في مرحلة ما بعد الاستقلال، مرحلة التمدن والتحضر ومواجهة العالم، الذي أسس له الروائي من خلال الهروب والانحراف عن موروث الأجداد في مرحلة الثورة، إنه الانقطاع بين زمانين يشكل أولهما الأصل المتين، ويعد الآخر تلاشيا للذات واغترابا وضياعا أمام مصاعب الحياة المعاصرة.

خلاصة: ولجنا العالم السردى ل (محمد مفلح) من خلال النص الروائي (عائلة من فخار. مسار المتقاعد صاحب الخيزرانة.)، وحاولنا من خلاله أن نعالج الظاهرة السردية لدى الروائي بالتركيز على خطاب قاد مسار السرد عنده، وهو سيميائية العنوان، فخرجنا بعد ذلك بمجموعة من النتائج نجملها في النقاط التالية:

_ تعد التجربة الإبداعية عند (محمد مفلح) في هذا النص السردى تجربة مجتمع وواقع معيش؛

_ الواقع الجزائري من خلال النص الروائي، يبدو واقعا قاسيا لا مفر من السلبية فيه؛

_ تتدرج مفردة العائلة عبر مسار (ولد الفخار)، وعبر ما يكنه العنوان للنص أي الامتداد الفعلي للعنوان داخل النص، من خلال تتبع المسار السردى للمتقاعد صاحب الخيزرانة أمكن تتبع الانتشار الدلالي للعنوان عبر مقاطع النص السردى بمختلف أحداثه التي تبدأ وتنتهي عند شخصية واحدة (المتقاعد صاحب الخيزرانة)، الذي يعد الحلقة الواصلة بين جيلين، ومسارا واحدا هو (الانحراف)

_ نقلت الشخصيات إيجابية الواقع وسلبياته بشكل نافذ إلى المتلقي؛

_ وجود الكاتب في وسط اجتماعي يشيع فيه الاتجاه الصوفي، أثر على كتابته فحاول إسناد هذا الاتجاه إلى شخصية المتقاعد صاحب الخيزرانة، دون سابق تعمق فيه، لأنه الاتجاه العام السائد في المناطق الغربية من الجزائر؛

_ استند النص السردى إلى طرح مشكلة اجتماعية عويصة، هي البطالة ومدى تأثيرها على المجتمع في جره نحو التلاشي والسلبية والانحراف، لكنه لم يقترح حلولاً لها، فكان نصاً واصفاً لحال المجتمع الجزائري في مرحلة انتقالية مهمة من تاريخ الجزائر المعاصر.

قائمة المراجع:

• المؤلفات:

- إبراهيم هلال، التصوف الإسلامي بين الدين والفلسفة، ط 01، (دار النهضة العربية، 1395 هـ)
- ج. هيو سلفرمان، نصيات، بين الهرمنيوطيقا والتفكيكية، ترجمة: حسن ناظم / علي حاكم صالح، ط 01، (المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، 2002).
- ج. ب. براون، ج. يول، تحليل الخطاب، تر: محمد لطفي الزليطني ومنير التريكي (النشر العلمي، المطابع. جامعة الملك سعود، المملكة العربية السعودية، 1997).
- جميل حمداوي، سيميوطيقا العنوان، ط 1، 2015، ص 08.
- جميل حمداوي، الاتجاهات السيميوطيقية (التيارات والمدارس السيميوطيقية في الثقافة الغربية)، ط 01، 2015.
- جون كوهين، النظرية الشعرية، بناء لغة الشعر/ اللغة العليا، ترجمة وتقديم وتعليق: أحمد درويش، (دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 2000).
- الحسن بن قاسم المرادي، الجنى الداني في حروف المعاني، تح: فخر الدين قباوة، محمد نديم فاضل، (دار الكتب العلمية، بيروت، ط 01، 1993).
- خالد حسين حسين، في نظرية العنوان، مغامرة تأويلية في شؤون العتبة النصية (التكوين، دمشق، 2007).
- سامية محمد جابر، الانحراف والمجتمع، (دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية 1987).
- صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، سلسلة عالم المعرفة، (المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ع 164، 1992).

– أبو عبد العزيز إدريس محمود إدريس، مظاهر الانحرافات العقدية عند الصوفية وأثرها السّيء على الأمة الإسلامية، ط 01، ج 01، (مكتبة الرشد، شركة الرياض الرياض، 1998).

– محمد الأنطاكي، المحيط في أصوات العربية ونحوها وصرفها، ج 03، ط 03، (دار الشروق العربي، بيروت، د.ت).

– محمد عاطف غيث، المشاكل الاجتماعية والسلوك الانحرافي، (دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1987).

– محمد مفتاح، دينامية النص (تنظير وإنجاز)، ط 03، (المركز الثقافي العربي الدار البيضاء، بيروت، 2006).

– محمد مفلح، عائلة من فخار. مسار المتقاعد صاحب الخيزرانة، (دار الغرب للنشر والتوزيع، الجزائر، د.ت).

• المقالات:

بلقاسم دفة، علم السيمياء والعنوان في النص الأدبي، محاضرات الملتقى الوطني الأول: السيمياء والنص الأدبي، جامعة محمد خيضر، بسكرة، منشورات الجامعة، 7 - 8 نوفمبر 2000، ص 39.

الهوامش:

- ¹ _ جميل حمداوي، سيميوطيقا العنوان، ط 1، 2015، ص 08.
- ² _ بلقاسم دفعة، علم السيمياء والعنوان في النص الأدبي، محاضرات الملتقى الوطني الأول: السيمياء والنص الأدبي، جامعة محمد خيضر، بسكرة، منشورات الجامعة، 7 - 8 نوفمبر 2000 ص 39.
- ³ _ صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب الكويت، ع 164، 1992، ص 218.
- ⁴ _ محمد مفتاح، ديناميّة النص (تنظير وإنجاز)، ط 03، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء بيروت، 2006، ص 72 .
- ⁵ _ جميل حمداوي، الاتجاهات السيميوطيقية (التيارات والمدارس السيميوطيقية في الثقافة الغربية)، ط 01، 2015، ص 26.
- ⁶ _ ج. هيو سلفرمان، نصيات، بين الهرمنيوطيقا والتفكيكية، ترجمة: حسن ناظم / علي حاكم صالح، ط 01، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء بيروت، 2002، ص 294.
- ⁷ _ خالد حسين حسين، في نظرية العنوان، مغامرة تأويلية في شؤون العتبة النصية، التكوين دمشق، 2007، ص. ص 64 - 65 .
- ⁸ _ جون كوهين، النظرية الشعرية، بناء لغة الشعر/ اللغة العليا، ترجمة وتقديم وتعليق: أحمد درويش، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 2000، ص 191.
- ⁹ _ خالد حسين حسين: في نظرية العنوان، ص 47 .
- ¹⁰ _ ج. ب. براون، ج. يول، تحليل الخطاب، تر: محمد لطفي الزليطني ومخير التريكي، النشر العلمي، المطابع. جامعة الملك سعود، المملكة العربية السعودية، 1997، ص 162.
- ¹¹ _ خالد حسين حسين، في نظرية العنوان، ص 50 .
- ¹² _ المرجع نفسه، ص 54 .
- ¹³ _ المرجع نفسه، ص 377 .

- ¹⁴ _ محمد الأنطاكي، المحيط في أصوات العربية ونحوها وصرفها، ج 03، ط 03، دار الشروق العربي، بيروت، ص. ص 380 – 381.
- ¹⁵ _ الحسن بن قاسم المرادي، الجنى الداني في حروف المعاني، تح: فخر الدين قباوة، محمد نديم فاضل، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 01، 1993، ص 227. 228.
- ¹⁶ _ محمد مفلح، عائلة من فخار. مسار المتقاعد صاحب الخيزرانة، دار الغرب للنشر والتوزيع الجزائر، دت، ص 07.
- ¹⁷ _ المصدر نفسه، ص 29.
- ¹⁸ _ المصدر نفسه، ص 47.
- ¹⁹ _ المصدر نفسه، ص 21.
- ²⁰ _ المصدر نفسه، ص 27.
- ²¹ _ المصدر نفسه، ص 40.
- ²² _ المصدر نفسه، ص 07.
- ²³ _ المصدر نفسه، ص 47.
- ²⁴ _ المصدر نفسه، ص 28.
- ²⁵ _ المصدر نفسه، ص 07.
- ²⁶ _ المصدر نفسه، ص 11.
- ²⁷ _ سامية محمد جابر، الانحراف والمجتمع، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1987، ص 149.
- ²⁸ _ محمد عاطف غيث، المشاكل الاجتماعية والسلوك الانحراي، دار المعرفة الجامعية الإسكندرية، 1987، ص 161.
- ²⁹ _ محمد مفلح، عائلة من فخار، ص 27.
- ³⁰ _ المصدر نفسه، ص 11_12.
- ³¹ _ المصدر نفسه، ص 41.
- ³² _ المصدر نفسه، ص 47.

- 33 _ إبراهيم هلال، التصوف الإسلامي بين الدين والفلسفة، ط 01، دار النهضة العربية، 1395 هـ، ص 01.
- 34 _ محمد مفلح، عائلة من فخار، ص 29.
- 35 _ المصدر نفسه، ص نفسها.
- 36 _ المصدر نفسه، ص 28.
- 37 _ المصدر نفسه، ص 26.
- 38 _ المصدر نفسه، ص 33.
- 39 _ أبو عبد العزيز إدريس محمود إدريس، مظاهر الانحرافات العقديّة عند الصوّفيّة وأثرها السيء على الأمة الإسلاميّة، ط 01، ج 01، مكتبة الرشد، شركة الرياض، الرياض، 1998، ص 31 .
- 32 .
- 40 _ سامية محمد جابر، الانحراف والمجتمع، ص 117 .
- 41 _ محمد مفلح، عائلة من فخار، ص 104.
- 42 _ المصدر نفسه، ص 105.
- 43 _ المصدر نفسه، ص 23.
- 44 _ المصدر نفسه، ص 90.

